

آفاق الحراك الشعبي للثورة المصرية

محمود الورداني *

(١)

كاتب هذه السطور يعتبر نفسه سعيد الحظ الى أقصى حد . فلم يحدث أن اهتز قلبي الى هذا الحد على مدى ستين عاما . كان يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ يوما عاديا مثل سائر الايام . وكانت المواقع الالكترونية وبعض الصحف قد نشرت خبر تنظيم مظاهرة في ذلك اليوم ، والمفارقة انه كان يصادف عيد الشرطة . وكنت قد انتويت المشاركة مثلما اعتدت . أقف قليلا داخل القفص لأجأر بالهتاف ساعة أو ساعتين وقد أحاطت بي دروع من جنود الأمن المركزي الغلابة والمدربين على النهش . وبالفعل بعد الساعة الواحدة بدقائق ، كان هناك عشرات قليلة أسفل مبنى محكمة النقض بدار القضاء العالي في قلب القاهرة . وكالعادة أيضا كان مفترضا أن أدخل القفص شأن العشرات و " أتسلى " كما كان الرئيس قد قال ساخرا قبل أيام قليلة معلقا على نشاط المعارضة . لاحظت أن الجنود لايمنعون أحدا من الانضمام الى المظاهرة ، لكنهم يحيطون بها جيدا ويحكمون الحصار حولها .

كان اليوم عطلة رسمية والشوارع شبه خالية ، فعبرت الشارع ، وبدلا من أن أدخل القفص ، خطر لي أن أستمر في السير ، وانحرفت الى الشارع المجاور ، حيث يقع مبنى نقابة الصحفيين التي تحولت في الفترة الأخيرة الى أحد معاقل الوقفات الاحتجاجية ضد نظام مبارك ، لكنني لم أجد سوى أربعة أشخاص فقط . سألتهم عن الأحوال ، فابتسم أحدهم قائلا انهم في انتظار الفرج !

* كاتب وباحث مصري

قلت لنفسي : لأتمشى قليلا .. وواصلت سيري في الشارع وعدت الى دار القضاء العالي لأدخل القفص ، أي الى تلك المظاهرة السابق الاشارة لها ، وعندما وصلت الى بدايتها ، فوجئت ان هناك مظاهرة أخرى نجحت في اختراق الطوق الأمني وانطلقت في شارع رمسيس المؤدي الى ميدان التحرير . منذ تلك اللحظة تغير وجه بلادنا الى الأبد وسقط النظام . رأيت تلك المعجزة الأسطورية تتشكل أمامي : عشرات ثم مئات ثم آلاف أوقفوا السير في الشارع وراحوا يندفعون في اتجاه ميدان التحرير.

(٢)

مر ما يزيد على العامين منذ قيام الثورة ، وكاد الاتفاق ينعقد بين أغلب القوى المدنية ' على أن الثورة قد تم الغدر بها أو سرقتها لحساب الاسلام السياسي . والآن فإن كل الاحتمالات متوقعة ، بدءا من نزول الجيش الى تمرد قوات من الداخلية (حدث هذا بالفعل وتمرد قسم لا يستهان به من تشكيلات الأمن المركزي) الى إجراء انتخابات رئاسية مبكرة ، بل ان اندلاع انتفاضة جياع أمر ليس مستبعدا ، وربما يكون احتمال استمرار الاخوان المسلمين حتى موعد الانتخابات الرئاسية بعد أربع سنوات هو الاحتمال المستبعد الوحيد حتى الآن .

لن تتناول السطور التالية تلك الاحتمالات إلا في علاقتها بالحراك الشعبي الذي لم يهدأ لحظة واحدة سواء خلال حكم العسكر الذي امتد من ١١ فبراير (شباط) ٢٠١١ وحتى ٣٠ يونيو (حزيران) ٢٠١٢ ، أو خلال حكم مرشح الاخوان محمد مرسي منذ ٣٠ يونيو وحتى الآن ، بل الأهم أن ذلك الحراك ازداد اشتعالا .

والمقصود بالحراك الشعبي خروج الكتل الجماهيرية الحية من القفص ، وهي كتل تختلف في توجهاتها وأساليبها ومواقفها الى هذا الحد أو ذاك ، عن الكتل التي مهدت للثورة منذ تأسست حركة (كفاية) ، مروراً بحركة ٩ مارس لاستقلال الجامعات ، وحركة استقلال القضاء ، وحركة ١٦ ابريل ، وحركة النقابات المستقلة ، واشتداد ساعد منظمات المجتمع المدني ، والدور الذي لعبه د . محمد البرادعي ، ومن قبله المواجهة التي كان الكاتب اليساري الراحل محمد السيد سعيد قد أجراها مع حسني مبارك في معرض الكتاب بالقاهرة في مطلع عام ٢٠٠٥ ، وهي مواجهة علنية تضمنت تنديدا بخطايا جهازه القمعي ضد المواطنين وخصوصا مواطني سيناء . وعاقب مبارك مفكري ومثقفي مصر بإلغاء لقائه السنوي بهم ، وهو اللقاء الذي كان قد اعتاد عليه - كجزء من الديكور الديمقراطي - منذ أكثر من عقد من الزمان . بطبيعة الحال تلك الكتل تضم في صفوفها النخبة بالأساس وتؤثر بشدة في القطاعات المدنية من الجماهير ، وفي الوقت نفسه لم تستطع أن تمارس هذا التأثير نفسه في جماهير الفقراء في أعماق القرى

والنجوع والمصانع ، بينما تمكن الاخوان المسلمون من ممارسته باللعب على المشاعر الدينية للبسطاء ، فضلا عن تقديم خدمات مختلفة وتوزيع المواد الغذائية على الفقراء خصوصا في مواسم الانتخابات ، اما السلفيون فقد تمكنوا من ممارسة تأثيرهم من خلال آلاف المساجد والزوايا المنتشرة في كل مكان .

(٣)

وإذا كانت الاعداد التي خرجت خلال الثمانية عشر يوما الأولى للثورة تقدر بالملايين في كل المدن ، فإن هذا معناه أن مصر كلها تقريبا لحقت بقطار الثورة . وإذا اضيف الى هذا أن من تحمل عبء الثورة هم الشبان والشابات ، فإن هذا يعني أيضا استمرار الثورة ونفْسَهَا الطويل . وفي هذا السياق فإن اعتماد الثورة على شبكات التواصل الاجتماعي منحها خيالا جديدا يكاد يتقاطع جذريا مع كل ماسبقها من احتجاجات وانتفاضات وهبات جماهيرية .

ويمكن اعتبار كتاب الناشط الشاب وائل غنيم عن هذا الملمح الأساس من ملامح الثورة المصرية ، من أهم الأعمال التي سردت التجربة الأسطورية ، عندما تأسست صفحة " كلنا خالد سعيد " - الشهيد الذي كان في العشرينات من عمره ، وتم ضربه حتى الموت من جانب الشرطة في السادس من يونيو (حزيران) عام ٢٠١٠ - وانضم إليها أكثر من مئة ألف شاب في غضون أيام قلائل ، وكانت التمهيد والتدريب المباشر للثورة التي مالبت أن اندلعت بعد شهور قليلة .

غني عن البيان ان اعتماد الثورة على الميديا الحديثة لايعني مجرد تغيير في الأساليب النضالية ، بل الأهم أنه تغيير في منطلقات الخيال وارتياحه آفاق تتجدد على الدوام ، وهو ماسأعود إليه لاحقا .

من جانب آخر ، فإن هؤلاء الثوار - أعني كتلتهم الأساس - لاينتمون الى أيديولوجية أو أحزاب سياسية أو حركات محددة ، بل الأغلب انهم وجدوا أنفسهم في الشارع يواجهون القمع والتنكيل ، سواء خلال حكم مبارك أو العسكر أو الاخوان المسلمين ، واستمدوا أفكارهم من تجربتهم المباشرة في الحركات الاحتجاجية والاعتصامات ، وصولا الى العصيان المدني في بعض المحافظات أخيرا .

ومن بين ملامح الثورة أيضا سلميتها التي أذهلت العالم ، لكن الأهم أنها أدت الى انضمام عشرات الآلاف اليها منذ أيامها الأولى . وأخيرا عدم وجود قيادة محددة لملايين اعتصموا في كل ميادين مصر ، وقرروا رحيل مبارك دون أي تفاوض وهو مامنحها حرية مطلقة ووفرلها الحماية من الضربات الأمنية .

أما أهداف الثورة الأساسية فلم تتغير حتى الآن ' وهي عيش - أي خبز - حرية .. كرامة .. عدالة اجتماعية ، ليس فقط لأن أيا منها لم يتحقق ، بل أيضا لأنها الأهداف التي لم يختلف عليها أحد ، بما

في ذلك الفصائل المنتمية للإسلام السياسي التي شاركت بعد عدة أيام من اندلاع الثورة مثل الاخوان المسلمين ، أو بعد خلع مبارك بالفعل مثل بعض تيارات السلفية التي كانت ترى ان طاعة أولي الامر قاعدة شرعية.

أهداف الثورة إذًا، تلعب دورها في الحراك الشعبي وتمنحه استمرارا ونفَسًا طويلا كما أسلفت ، وبالتالي فإن مواصلة الاحتجاجات والمظاهرات والمسيرات والاعتصامات لتحقيقها استمرت وسوف تستمر .

وإذا وضع القارئ في اعتباره التدهور الاقتصادي الحاد والنزيف المستمر لما تبقى من موارد ، ومارتكبه المجلس العسكري من خطايا كارثية خلال الفترة الانتقالية من المماطلة في تنفيذ مطالب الثورة والاقتصر على وقف التوريث ، وكذلك مساعدة الاخوان وتمكينهم من الحكم ، وخوضهم سلسلة من المعارك والمذابح العنيفة ضد الثوار خلال عامي ٢٠١١ و٢٠١٢ ، فيما عرف بمذابح محمد محمود ومجلس الوزراء ومحيط وزارة الداخلية ، والمذابح المماثلة في الاسكندرية وسلسلة من المحافظات ..

وإذا وضع القارئ في اعتباره أيضا ازدياد عدد الشهداء ، وتضاعف أعداد الجرحى ، ومن انتهكت أعراضهن في المظاهرات أثناء فضها بالقوة ، ومن عذبوا وجرى التنكيل بهم في الأقبية والسجون ، ومن قتلوا بالرصاص الحي والخرطوش ، ومن اختنقوا بقنابل الغاز أمام القصر الرئاسي ، ثم من اختطفوا وتعرضوا للتعذيب في أكشاك حراسة القصر الرئاسي على يد عناصر من الاخوان المسلمين خلال شهري نوفمبر وديسمبر ٢٠١٢ .

ولعله من المفيد هنا أن أشير الى أن الكتل الجماهيرية السابق الاشارة لها لاتتنمي الى طبقة اجتماعية واحدة، صحيح انها تشكلت أساسا من فقراء المدن، إلا أنه صحيح أيضا ان قطاعات واسعة من المتعلمين وأبناء الطبقة الوسطى ومسائير الناس والميسورين شاركوا ويشاركون بقوة. إذا وضع القارئ كل هذا في اعتباره، فإن آفاق الحراك الشعبي تبدو مرشحة لمزيد من المعارك الطاحنة.

(٤)

والحال، أن الأعداد الضخمة التي شاركت في الاعتصامات والاحتجاجات والمسيرات ، ينخرط المزيد منها كل يوم في النضال العملي ، ووقودها الأساس هم الشباب ، وتعتمد أساسا على الميديا الحديثة وعلى الأخص شبكات التواصل الاجتماعي ، كما أنها لاتتنمي الى أيديولوجية محددة ، ولم تتحقق أهدافها بعد مرور عامين من المعارك الطاحنة ، مع مزيد من التدهور الاقتصادي الحاد ، واتساع المعارك والمذابح وسقوط الشهداء والمصابين على نحو شبه يومي ، وسلمية الثوار وعدم وجود قيادة محددة .. إن كل هذه الوقائع تشير بالقطع الى استمرار هذا الحراك ، بل واتساعه يوما بعد يوم .

يضاف الى ماسبق أن حاجز الخوف سقط الى الأبد ' فقد شاهدت بنفسي بعد ظهر يوم ٢٥ يناير - في

اليوم الأول للثورة - شبابا سيكون ، حرفيا سيكون ، عندما نجحت أول مظاهرة في اقتحام ميدان التحرير ، كما شاهدت بنفسني ذلك الشاب الذي وقف في عرض الشارع الخالي ، في هذا اليوم نفسه ، بثبات مخيف ، بينما مدرعة الشرطة التي تستخدم خرطوم المياه لتفريق المتظاهرين تتقدم نحوه مسرعة . انتظر الشاب بهدوء حتى اقتربت المدرعة منه وكادت تدهسه ، فقفز قفزة أسطورية ، طار في الهواء حقيقة وليس على سبيل المجاز ، وهزم الوحش الذي كان يستعد لإطلاق خرطوم مياهه .

وطوال الأيام ، بل والساعات التالية ، وحتى إجبار المخلوع على التنحي في ١١ فبراير (شباط) كان المصريون يهزمون عقودا من الخوف والرعب والإذلال والنيل من الكرامة وإفساد الروح ، تلال من سلاسل القمع و الفقر والفساد المنظم أزاحها المصريون كل ساعة من أيام ثورتهم حتى أجبروا الديكتاتور على الرحيل.

لدى كاتب هذه السطور يقين يتأكد يوما بعد يوم أن أهم ماأنجزته الثورة هو إلحاق الهزيمة بالخوف الذي عشنش في الصدور على مدى ستين عاما ، واستبدال الجساسة والجرأة والخيال الجديد الشاب به ، ومهما جرى ومهما تعرضت الثورة المصرية للعثرات ومحاولات الاختطاف ، إلا أن الحقيقة المؤكدة أن المصريين هزموا الخوف.

هذه الحقيقة الساطعة تدعو للاطمئنان بقوة على مستقبل الحراك الشعبي ،لنتذكر فقط اننا أمام ثورة ذات خيال مختلف ، تم الاعداد لها علنا وعلى رؤوس الأشهاد، بل ان كاتبها مثل د. هشام يونس كتب على موقع " فيس بوك " في ٢٤ يناير - قبل الثورة بيوم واحد - مامعناه انه لا توجد ثورة بموعد مسبق ، في إشارة الى الدعوة التي أطلقها الشباب على الموقع ذاته بالنزول والتظاهر والقيام بالثورة ، مؤكدا ان تحديد هذا اليوم مجرد بلاغة ، وهو نفسه - يونس - سرعان ماأصدر واحدا من أهم الكتب عن الثورة قبل أن ينصرم عامها الأول .

ومع كل هذا فإن طريق الحراك الشعبي المؤدي لتحقيق أهداف الثورة ليس مفروشا بالورود، خصوصا بعد تسلّم الاخوان المسلمين السلطة بتنصيب محمد مرسي رئيسا للجمهورية ، وبدء عملية التمكين حسب المصطلح الاخواني ، والذي يقضي بالتسلل الى مفاصل الدولة العميقة بزرع الأنصار والكوادر في مختلف الأجهزة والمؤسسات وتوليهم مناصب تنفيذية حاسمة ' مستخدمين في هذا السبيل كل الأساليب العنلية والمفضوحة والعنيفة كلما لزم الأمر.

فعلى سبيل المثال نظمت جماعة الاخوان المسلمين وحلفاؤها من السلفيين حصارا لمقر المحكمة الدستورية العليا على مدى شهر كامل لمؤيدي قرارات الرئيس مرسي رئيس الجمهورية في ديسمبر ٢٠١٢ ، لمنعها من النظر في دستورية مجلس الشورى والجمعية التأسيسية لوضع الدستور ، وكان قد

تحدد لنظرها يوم ٢ ديسمبر . وكان رئيس الجمهورية قد أصدر منفردا إعلانا دستوريا في ٢٢ نوفمبر ٢٠١٢ لم يجرؤ أي من حكام مصر السابقين على إصدار مثيله ، حيث تضمن على سبيل المثال " الاعلانات الدستورية وقرارات رئيس الجمهورية منذ ٣٠ يونيو ٢٠١٢ وحتى نفاذ الدستور تكون نهائية وغير قابلة للطعن عليها وتنقضي كافة القضايا المنظورة أمام القضاء بشأنها " ، كما تضمن أنه " لايجوز لأي جهة قضائية حل مجلس الشورى أو اللجنة التأسيسية " ، وتضمن أن " لرئيس الجمهورية إذا قام خطر يهدد البلد وسلامته أو يعوق مؤسساته أن يتخذ الاجراءات والتدابير على النحو الذي ينظمه القانون " ، فضلا عن منح رئيس الجمهورية حق " اتخاذ اجراءات استثنائية لحماية الثورة " دون تحديد .

هذا مجرد مثال فقط للأساليب العلنية المفصوحة لمحاولات الاخوان المحمومة لحرث الأرض على الصعيد الدستوري ، وذلك لتمرير دستور وضعته جمعية تأسيسية مشكوك في شرعيتها واستقالت منها غالبية القوى المدنية فضلا عن الأزهر والكنيسة ، ومالجا إليه رئيس الجمهورية يدل على مدى الخطل والتخبط من ناحية ، وشهوة السيطرة وفرض النفوذ مع إقصاء وتهميش المختلفين وليس مجرد المناوئين من ناحية أخرى .

مثل هذا الإعلان لا يصدر إلا عن عتاة الديكتاتوريين الذين يندر أن يوجد الزمان بأمثالهم ، فالرئيس يحصن قراراته وإعلاناته باعتبارها نهائية وغير قابلة للطعن عليها ، والأشد خطرا انقضاء كافة القضايا المنظورة أمام القضاء. وإذا أضفنا الى هذا ان البلاد بلا برلمان ' بعد حل البرلمان السابق بحكم المحكمة ، فإن هذا معناه ان الرئيس قابض على السلطتين التشريعية والتنفيذية في آن معا ، ويمارسهما منفردا ، بينما مجلس الشورى المهيم عليه من جانب الاخوان والسلفيين يرتكب الخطايا والموبقات ' بإصدار قوانين تستكمل حرث الأرض وتههيدها لصالح الاخوان .

(٥)

أثناء كتابة هذه السطور ، دارت واحدة من أكثر المعارك شراسة وعنفا ، عندما توجه عدد من الشباب المعارضين لممارسات الاخوان السياسية لمقر الجماعة ، ليرسموا رسومهم الجرافيتي على الأرض أو الجدران ، مثلما كان آخرون قبل اسبوعين توجهوا لذات المقر، ورقصوا الرقصة المعروفة " هارلم شيك " احتجاجا أيضا على ممارسات الاخوان ، وانصرفوا في هدوء ، لكن الاحتجاج الأخير انتهى نهاية دامية .

وهنا أود أن أفتح قوسا لأوضح ان الوضع القانوني والرسمي للجماعة هو انها جماعة محظورة حيث تم حلها بالفعل منذ عام ١٩٥٤ بعد محاولتها اغتيال جمال عبد الناصر ، وظلت على مدى السنوات السابقة جماعة محظورة بقوة القانون ' ومع ذلك حافظت على وجودها ، على الرغم مما تعرضت له من اعتقال وقمع وتعذيب اعضائها ، خصوصا في أعقاب محاولة اغتيال جمال عبد الناصر . والمجال هنا

ليس مناسباً للاستطرد كثيراً فيما يتعلق بالدور الذي لعبه الإخوان في الحياة السياسية المصرية ، وإن كان ممكناً أن يرجع القارئ الى كتابين بالغى الأهمية في هذا الخصوص ، وهما كتاب الباحث الراحل حسام تمام " الإخوان المسلمون قبل الثورة " وأصدرته دار الشروق ، والثاني " سر المعبد " لأحد المنشقين عن الإخوان وهو الاستاذ ثروت الخرباوي وأصدرته دار نهضة مصر .

على أي حال ، نجحت الجماعة في ظل الظروف المعاكسة في التواجد بقوة ، بل وحصلت في الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٥ على ثمانين مقعداً ، وفي سياق حكم حسني مبارك كان الإخوان جزءاً أساسياً من المعادلة السياسية ، وذلك بسبب اعتماد مبارك على تخويف الغرب والولايات المتحدة بأنهم البديل الوحيد لحكمه ، وهو ما أدى الى حرصه على تواجدهم بالقدر الذي يحتاجه ووفق صفقات محددة لم تعد سرا الآن ، من بينها مثلا السماح لهم ولحلفائهم بامتلاك قنوات فضائية دينية ، أو دور نشر ، أو مقاعد في البرلمان ، أو الانخراط في أعمال خيرية مثل انشاء مستوصفات علاجية وتوزيع مواد غذائية على الفقراء ، كما سمح لهم أيضاً بالتواجد القوي في أغلب النقابات المهنية والاتحادات الطلابية .. الخ.

أعود الى المعركة التي دارت بين الإخوان والقوى المدنية خلال النصف الثاني من شهر مارس هذا العام ، وتتلخص في قيام عدد من الشباب المعارض للإخوان بالتوجه الى مقر الإخوان الذي تم بناؤه بعد الثورة ، ورسموا رسومهم الجرافيتي - كما سبقت الإشارة - احتجاجاً على إقصاء الجماعة وتهميشها لكل القوى السياسية ، وانفرادها بالحكم والاستحواذ على السلطتين التشريعية والتنفيذية ، وانفرادها كذلك بكتابة الدستور على هواها ، والأخطر انها تنفرد أيضاً بامتلاكها ذراعاً سياسية - "حزب الحرية والعدالة " - الذي تأسس بعد الثورة ، الى جانب وجود جماعة الإخوان المسلمين المحظورة قانوناً والمفروضة بحكم الأمر الواقع وممارسة دورها كحاكم لمصر ، وهو الأمر الذي يفسر توجه الشباب للاحتجاج أمام مقر الحكم الحقيقي ، وهو مقر الإخوان الرسمي ، بدلا من التوجه الى قصر الرئاسة .

وفور توجه الشباب للاحتجاج السلمى برسوم الجرافيتي ، بادر حراس المقر وشباب الجماعة بالاعتداء على شباب المعارضة ، ولم يفرقوا بين الشبان والفتيات ، كما قاموا بتكسير عظام - حرفياً - عدد من الصحفيين الذين كانوا يقومون بواجبهم المهني بتغطية الحدث ، وقد تم توثيق كل وقائع الاعتداء بالفيديو وأذاعته الفضائيات ونشرته الصحف .

وعلى مدى اسبوع كامل قام الشباب بالتردد على المقر والتظاهر في محيطه ، تمهيداً لمليونية أسموها "جمعة رد الكرامة" ، حيث سعد الى هضبة المقطم عدة آلاف ، إلا أن الأمر تطور وحدثت عدة اشتباكات وجرح عدة مئات من الجانبين ، على الرغم من الآلاف من جنود الأمن المركزي ومدركات الشرطة التي اصطفت لحماية المقر.

أوردت التفاصيل السابقة لأوضح إلى أي مدى وصل الاستقطاب والاحتقان ، مما يؤثر على الحراك الشعبي في اتجاه تحقيق أهداف الثورة ، كما يوضح أن هناك حالة غليان مستمرة ، في ظل أوضاع القوى السياسية الحالية وكذلك أجهزة الدولة (الجيش - قوات الامن - مؤسسة الرئاسة) .
وإذا كنت سوف أحاول فيما يلي إلقاء الضوء على تلك الأوضاع ، إلا أن هذه المحاولة سوف تقتصر فقط على علاقتها بالحراك الشعبي ، أما الكتل الجماهيرية التي خرجت من القفص بعد هزيمة نظام مبارك ، فسوف أرجئها إلى القسم الأخير من هذه الدراسة .

(٦)

فيما يتعلق بالقوى والأحزاب السياسية ' فهناك أولا تلك التي كانت قائمة قبل الثورة ، وقد تكفل نظام مبارك على مدى ثلاثين عاما بإفساد أغلبها أو إضعافها إلى أقصى حد وحصارها ، وهناك ثانيا تلك الحركات والأحزاب التي تشكلت بعد الثورة.

قبل الثورة ، سمح النظام بعدد محدود من الأحزاب ، سواء تلك الموروثة من عهد سلفه أنور السادات ، أو تلك التي نشأت في عهده ، وكلاهما لم يكونا سوى مجرد ديكور يتزين به النظام ، في ظل سيطرة أمنية مطلقة ، من بينها مثلا أنه لم يكن مسموحا بأي نشاط سياسي خارج مقل الأحزاب .

وهكذا ، فإن حزبا مثل حزب الوفد بكل تراثه الليبرالي العريق الذي استمدته من ثورة ١٩١٩ ، تحول إلى مجرد مقر وصحيفة لا يقرأها أحد . وحزب مثل حزب التجمع اليساري الذي شهد نهوضا شديدا عشية وفي أعقاب انتفاضة الطعام في مطلع عام ١٩٧٧ ، دخل في غيبوبة طويلة ، وانفض القراء عن صحيفته الأهالي ، وتكلست قيادته القديمة ، وتراجع دوره في الحياة السياسية المصرية على نحو مخيف . أما الأحزاب الصغيرة التي سمح قانون الأحزاب المقيد للحريات بها ، فقد كان أغلبها مجرد فقاعات ، ولا تحرص الا على الإعانة المالية التي تمنحها الدولة .

كذلك عانى اليسار الثوري السري من مرضه المزمن القديم ، أي تشرذمه وحلقيته وعزلته ، فبعد أن وجهت له أجهزة الأمن ضربات متلاحقة وسريعة ، خلال عقدي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي ، أجهز على البقية الباقية منه جموده وعزلته وعجزه عن فهم الواقع الجديد الذي كان يتشكل ويتحول إلى علامات استفهام كبرى .

أما الحركات الاحتجاجية الجديدة ، فقد بدأت في الظهور مع اندلاع انتفاضة الأقصى في خريف ٢٠٠٠ بتأسيس اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة الفلسطينية ، وتميزت بهيكلها التنظيمي المرن وانفتاحها على جميع التيارات ، وركزت على العمل الاحتجاجي المباشر خارج الأطر المؤسسية . وعشية الحرب الأمريكية

على العراق، تأسس عدد من الحركات المناهضة للغزو الأمريكي مثل حركة ٢٠ مارس والحركة الشعبية لمناهضة الصهيونية والامبريالية ، والى جانب المظاهرات العارمة، نجحت تلك الحركات في عقد عدة مؤتمرات بالقاهرة لمناهضة الحرب على العراق شارك فيها نشطاء من الداخل والخارج .

وشهدت الفترة بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ ظهور عدد آخر من الحركات التي أولت عنايتها للشأن الداخلي مثل الحركة المصرية من أجل التغيير المعروفة باسم " كفاية " ، والحملة الشعبية للتغيير ، والتجمع الوطني للإصلاح ، والجهة الوطنية للتغيير . وتميزت حركة كفاية تحديدا بحرصها على هيكل تنظيمي مرن ، اتسع ليسار والتيارات القومية والاسلامية وفق مطلب محدد توافق عليه الجميع ، وهو "للاستمرار .. لا للتوريث " أي رفض إعادة انتخاب مبارك أو توريث ابنه ، الى جانب ضرورة اصلاح سياسي ودستوري شامل ، والأهم أنها الحركة التي كسرت تابو التظاهر العلني في الشارع ، وتعرضت من جراء ذلك لعنف وقمع شديدين .

وعموما فإن من أهم ماضييف الى رصيد الحركة السياسية في مصر خلال الفترة بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٨ دخول جيل جديد من النشطاء الشباب الى المجال السياسي ، حيث برز دور منظمات المجتمع المدني ، وبدأ هذا الجيل في التعبير عن نفسه والتفاعل والنقاش من خلال مواقع التواصل الاجتماعي والمجموعات البريدية . كان هذا التطور الأخير حاسما ، وسرعان ماتم اعتماده بين الحركات الجديدة.

والى جانب الدور الذي لعبته حركة كفاية - كما سبقت الإشارة - أُعلن عن تأسيس حركة شباب من أجل التغيير في فبراير ٢٠٠٥ ، وأُسست بدورها حركة تضامن المطالبة التي قادها عمال وفلاحون وموظفون عام ٢٠٠٧ ، أما حركة شباب ٦ ابريل فقد أسسها عدد من الناشطين على مواقع التواصل الاجتماعي في الحركات السابقة ، وارتبط اسمها بإضراب عمال مدينة المحلة الكبرى في ٦ ابريل عام ٢٠٠٨ ، حيث أعلنوا تضامنهم مع إضراب العمال ، والأهم أنهم دعوا لإضراب عام في كل مصر تزامنا مع إضراب عمال المحلة ، وقاموا بتشكيل مجموعات أرسلت مئات الرسائل الى الأعضاء المصريين على موقع الفيس بوك ، الى جانب استخدام الحركة للرسائل القصيرة على الهواتف المحمولة والمنشورات والشعارات المتعلقة على جدران الشوارع ، ونجح هذا الإضراب الى حد كبير بعد عقود من إفساد الحياة السياسية.

من جانب آخر ، سمح نظام مبارك بوجود جماعة الاخوان المسلمين ، بشرط أن تكون تحت قبضته المباشرة، كما أسلفت ، بينما اختار أن يواجه جماعات الاسلام السياسي الجهادية التي رفعت السلاح في وجه نظامه بالعنف ، وقام بتصفيتها تقريبا إما بالقتل المباشر أثناء المعارك، أو بالزج بأعضائها في السجون سنوات طويلة .

على أي حال ، يجب التأكيد هنا مرة أخرى على أن وجود الاخوان المسلمين كان ضروريا لنظام مبارك

نفسه، مثلما كان ضروريا لنظام السادات الذي فتح لهم أبواب التواجد والتأثير على مصراعيها، لمواجهة أعتى خصومه وأقواهم آنذاك من اليساريين والقوميين في صفوف الطلاب والعمال، وأخرج البقية الباقية من الاخوان من السجون ، فأعادوا تشكيل تنظيمهم وبدأوا في تنفيذ المهام التي خرجوا من السجون على أساس تنفيذها ، ونجحوا في الوقوف بقوة في وجه خصوم السادات بالتعاون مع أجهزة الأمن .

واستقرت العلاقة بين مبارك والاخوان، فهم يعرفون الخطوط الحمراء جيدا ولايتجاوزونها، ومهما بدا العداء مستحكما، إلا أن كلا منهما يعرف أهميته للآخر من ناحية، ومن ناحية أخرى يحب الاعتراف بأنهم حققوا تواجدا سياسيا وتأثيرا متزايدا في قواعد جماهيرية معتبرة، خصوصا في الريف والنقابات المهنية والجامعات ، فضلا عن أن خيارهم بالوجود العلني تحت عين أجهزة الأمن ورقابتها المباشرة ساهم في تعزيز تأثيرهم وتواجدهم السياسي.

(٧)

حاولت في السطور السابقة أن أقدم عموم المشهد السياسي السابق مباشرة على الثورة، في علاقته بآفاق الحراك الشعبي في المرحلة المقبلة. وإذا كانت القوى السياسية المختلفة قد شاركت على هذا النحو أو ذاك ولحقت بقطار الثورة، فإن من فجروا الثورة هم الشباب، ومن الثابت أن الاخوان لم يشاركوا إلا بعد ثلاثة أيام من اندلاعها، وقبل خلع مبارك وافقوا على الجلوس مع عمر سليمان الذي كان مبارك قد عينه نائبا له والتفاوض معه، بينما رفضت قوى سياسية أخرى، وعلى الأخص الشباب، لقاء النائب بعد إطلاق النار على المتظاهرين السلميين.

وكما سبقت الإشارة ، فإن آفاق الحراك الشعبي في اتجاه تحقيق أهداف الثورة ليس مفروشا بالورود، خصوصا مع الاستقطاب الحاد وأجواء الاحتقان المخيمة بعد تولي مرسي مرشح الاخوان مقاليد الحكم في لحظة فارقة وخاصة جدا، فهو أولا لم ينجح إلا بفارق ضئيل جدا لم يتجاوز ١% ، وثانيا فإن قسما لا يستهان به ممن أعطوا أصواتهم له ، لم يفعلوا هذا إلا كرها لمنافسه احمد شفيق المعروف باعتباره مرشح النظام القديم، أي أنهم انتخبوا مرسي لصالح استمرار الثورة، وبعد أن قدم تعهدات مسجلة وموثقة بالالتزام بتحقيق أهداف الثورة، وعلى الأخص الالتزام بالديمقراطية وحرية التعبير، إلا أنه سرعان مانكت عنها الواحد تلو الآخر بعد فوزه في الانتخابات الرئاسية.

ومع ذلك فإن إلقاء نظرة سريعة على الشهور التي سبقت انتخاب مرشح الاخوان سيكون مفيدا لفهم المرحلة المقبلة ، حيث تجسد الحراك الشعبي في ظهور عشرات الائتلافات والحركات والجبهات

الشبابية التي لم تفجر الثورة فقط ، بل وحملت عبئها الرئيس ، وواصلت السير في طريقها لتضم إليها قوى جديدة لم يتسن لها المشاركة الفعلية في أحداث أيام الثورة الأولى. وإذا كانت تعاني من الانقسامات والتشردم ، إلا أنها تتميز بالنقاء والصلابة ولا تعرف الحلول الوسط ، وتملك استخدام الميديا الحديثة ، وتملك أيضا خيالاجديدا مبهرا . وطوال عام ونصف العام منذ خلع مبارك وحتى تسليم السلطة لمصري في ٣٠-٦-٢٠١٢ ، بقيت الحركات الشبابية ذات الهيكل التنظيمي المرن في الشارع لتحقيق أهداف الثورة ، وواجهها المجلس العسكري بالاعتقال والمحاكمات العسكرية والتعذيب وفض المظاهرات والاحتجاجات بالقوة ، بينما حرص الاخوان وغيرهم من فصائل الاسلام السياسي لأسباب مختلفة ، على عدم الصدام بالمجلس العسكري بل والتنسيق معه .

وقد أدت الادارة المهترئة للمرحلة الانتقالية على يد المجلس العسكري لخطايا كارثية ، لذلك فإن نزوله لفرض الأمن والنظام في حالة اندلاع الفوضى المتوقعة سيكون محفوفًا بالمخاطر ، خصوصا مع انتشار تهريب السلاح وتشكيل نوع من الميلشيات تتبع الاخوان أو بعض السلفيين .

والحال أن الكتلة الجماهيرية المدنية ، سواء قسمها المنتمي للأحزاب والحركات المدنية والليبرالية ، أو قسمها الآخر غير المنتمي هي الوحيدة التي قررت خوض المعركة حتى نهايتها ، وهو ماتجسد في أعقاب صدور الإعلان الدستوري السابق الإشارة له في نوفمبر عام ٢٠١٢ ، حيث سبقت هذه الكتلة أحزاب جبهة الإنقاذ التي تضم كل المناوئين للاخوان ، وسارعت بالتوجه للقصر الرئاسي وحصاره لإجبار الرئيس على إلغاء الإعلان الدستوري . وبالرغم من أن الاعتصام السلمي أمام القصر حق للمتظاهرين ' إلا أن الاخوان وبعض السلفيين استدعوا كوادهم وهاجموا الاعتصام وقاموا بفضه بالقوة وأحرقوا الخيام وألقوا القبض على بعض المعتصمين وقاموا بتعذيبهم وسحلهم .

تشير كل الدلائل الى أن أوضاع الاستقطاب والاحتقان بين قوى الاسلام السياسي بأطيافه المختلفة، وبين القوى المدنية والليبرالية المنظمة وغير المنظمة ، مرشحة لمزيد من المواجهات لأن الأولى تندفع بأقصى سرعة نحو أخونة الدولة المصرية والتسلل الى مفاصلها ، بينما الثانية ليست لها قيادة موحدة، بل ان الكتلة الأكبر من الشباب اعتادت تجاوز الاحزاب والحركات المدنية في مواقفها .

وإذا كانت قوى الاسلام السياسي تمتلك السلطة الفعلية ، كما تمتلك تنظيمات هيراركية قوية ومنضبطة على نحو شبه عسكري ، فإن القوى المدنية لاتملك كل هذا ، إلا أنها تملك الأثمن والأقوى، وهو إلحاق الهزيمة بالخوف الى الأبد ، وهنا لأقصد المجاز ، بل حرفيا إلحاق الهزيمة بالخوف ، وكشف الشباب ويكشفون عن إبداعات جديدة في المقاومة ، من رسوم الجرافيتي على جدران الشوارع وأرضها بحيث تكون لسانا لحال الثورة ، الى تكتيكات الكر والفر ، الى انضمام المحافظات البعيدة عن القاهرة ومهاجمة

مقرات الاخوان المسلمين ، الى العصيان المدني ، ولم يعد يمر يوم من دون حدوث فعل سياسي في الشارع . هذا الإيقاع السريع للأحداث اليومية، وحركات المطالب الفئوية، وتصلب الاخوان وفشلهم في الاستجابة لها، مع بدء ظهور ميليشيات سلفية واخوانية قامت أخيرا بمحاصرة مدينة الانتاج الاعلامي ومنعت الاعلاميين وضيوهم من الدخول والخروج بات أمرا عاديا ومتكررا.

الحراك الشعبي إذن يتجه ببطء وإن كان بثبات نحو تحقيق أهداف الثورة والانتصار للدولة المدنية . وفي النهاية ، أكرر ان إلحاق الهزيمة بالخوف يتأكد يوما بعد يوم ، وربما كان هذا هو الضمانة المؤكدة والناجعة لاستمرار الحراك الشعبي وخوضه لمعاركه في اتجاه حماية الثورة من الاختطاف وتحقيق أه دافها.

المراجع والمصادر

- محمود الورداني ، حكايات الحرية ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، الطبعة الأولى ٢٠١١
- عبد العظيم حماد ، صراع الخوذة واللحية والميدان ، القاهرة ، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية ، الطبعة الأولى ٢٠١٣
- وائل غنيم ، الثورة ٢٠٠٥ ، القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ٢٠١٢
- شريف يونس ، مسارات الثورة ، القاهرة ، دار العين للنشر ، الطبعة الأولى ٢٠١٢
- دينا شحاتة ، تحرير ، عودة السياسة - الحركات الاحتجاجية الجديدة ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، الطبعة الأولى ٢٠١٠
- ماهر فرغلي ، الخروج من بوابات الجحيم ، بيروت ، مؤسسة الانتشار العربي والرياض مركز الدين والسياسة ، الطبعة الأولى ٢٠١٢
- مروة نظير ، استقلال القضاء كضامن للديمقراطية ، القاهرة ، بدائل - كراسة غير دورية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام